الملاحظة

عملية الملاحظة السلوكية تتضمن ببساطة الملاحظة المباشرة والتسجيل المنهجي للسلوكيات. في كثير من الأحيان تحدث هذه السلوكيات في بيئة طبيعية؛ على سبيل المثال، قد يراقب الباحث الأطفال في ملعب أو الطيور في البرية. ومع ذلك، يمكن أيضًا ملاحظة السلوكيات في بيئات أنشأها الباحث. ومع ذلك، فإن هذه التقنية لقياس السلوكيات تطرح مشكلتين خاصتين بالقياس:

بما أن الهدف هو مراقبة السلوك الطبيعي، فمن الضروري أن لا يتأثر السلوك بوجود المراقب. وهذا يثير تساؤلات حول تأثير "خصائص الطلب" و"ردود فعل المشاركين" (راجع الفصل الثالث: "خصائص الطلب وردود فعل المشاركين").

تتطلب الملاحظة والقياس على الأقل بعضًا من الحكم أو التفسير الذاتي من قبل المراقب. على سبيل المثال، إذا شاهدنا طفلين في مرحلة ما قبل المدرسة يصطدمان ببعضهما البعض، يجب أن نقرر ما إذا كان الاتصال عرضيًا أو متعمدًا، وإذا كان متعمدًا، أي الطفلين بادر به، وما إذا كان الفعل عدوانيًا أم مجرد لعب. بما أن القياسات تستند جزئيًا إلى الحكم الذاتي، فإن ذلك يثير تساؤلات حول موثوقية الملاحظات (راجع الفصل الثالث: "موثوقية القياسات"). بمعنى، هل سيتم الحكم على حدوثين متطابقين من نفس السلوك بالطريقة نفسها، أو هل سيتم تسجيل حادثة واحدة من قبل مراقبين مختلفين بنفس الطريقة؟

معالجة المشكلات:

المشكلة الأولى يمكن معالجتها عن طريق إخفاء المراقب أو الجهاز (مثل الكاميرا) الذي يسجل السلوك، حتى لا يدرك الأفراد أن سلوكهم يتم مراقبته وتسجيله. وطالما أننا نراقب سلوكيات عامة في أماكن عامة، فلا توجد مشكلة أخلاقية في عدم الحصول على موافقة المشاركين للمراقبة. بديل آخر هو تعويد المشاركين على وجود المراقب. يتطلب التعويد التعرض المتكرر حتى لا يصبح وجود المراقب حدثًا جديدًا. على سبيل المثال، يمكن للمراقب الجلوس في غرفة الصف لمدة ساعة يوميًا لمدة أسبوع قبل بدء الملاحظة الفعلية. في اليومين الأولين، يعتبر وجود المراقب حدثًا جديدًا، ويعدل الأطفال سلوكهم. بعد بضعة أيام، يصبحون معتادين على وجوده (كما لو كان قطعة أثاث) ويعودون إلى سلوكهم الطبيعي.

لمعالجة المشكلة الثانية، وهي الذاتية، عادةً ما يستخدم الباحثون ثلاثة أدوات مترابطة لضمان موضوعية الملاحظات السلوكية. أولاً، يقومون بتطوير قائمة من الفئات السلوكية المحددة بشكل جيد؛ ثم يستخدمون مراقبين مدربين تدريبًا جيدًا؛ وأخيرًا، يستخدمون مراقبين أو مشفرين متعددين لتقييم موثوقية الترميز بين الملاحظين. أول خطوة في هذه العملية هي إعداد قائمة بالسلوكيات، تُسمى الفئات السلوكية. يتطلب تطوير مجموعة من الفئات السلوكية تحديد أنواع السلوكيات التي نرغب في ملاحظتها (مثل اللعب الجماعي، اللعب الفردي، العدوانية، أو التفاعل الاجتماعي) ثم إعداد قائمة بالسلوكيات المحددة التي تكون أمثلة لكل فئة. هذه القائمة المعدة مسبقًا تمكن المراقبين من معرفة ما الذي يجب ملاحظته وكيفية تصنيف كل سلوك. فعلى سبيل المثال، لا يحتاج المراقبون إلى اتخاذ قرار ذاتي حول ما إذا كان السلوك المرصود عدوانيًا؛ بل عليهم ببساطة أن يحددوا ما إذا كان السلوك المرصود موجودًا في قائمة السلوكيات العدوانية.

على سبيل المثال، في دراسة حول تأثير ألعاب الفيديو العنيفة على السلوك العدواني لدى الأطفال، قام الباحثون بتعريف العدوانية باستخدام قائمة تتضمن السلوكيات التالية: ضرب، ركل، أو دفع شخص ما؛ القتال مع شخص ما؛ إطلاق ألقاب مسيئة أو المشاجرة؛ مضايقة شخص ما؛ تخويف شخص ما للحصول على ما يريده؛ والغيبة.

تسجيل ومقارنة الملاحظات:

خلال فترة الملاحظة، يقوم شخص واحد عادةً بالملاحظة وتسجيل السلوكيات باستخدام قائمة الفئات السلوكية كمرشد. ومع ذلك، لضمان الموثوقية، يُطلب من اثنين أو أكثر من الأفراد المراقبة والتسجيل في نفس الوقت خلال بعض فترات الملاحظة. ثم يتم حساب درجة الاتفاق بين الملاحظين، إما عن طريق حساب الارتباط بين درجاتهم أو عن طريق حساب نسبة الاتفاق التي تتراوح من 1.00 (اتفاق كامل) إلى 0 (لا يوجد اتفاق)، كمعيار لموثوقية الترميز بين الملاحظين.

كمثال، قامت الباحثة دهامي (2003) بملاحظة وتحليل قرارات الإفراج بكفالة من قبل قضاة في محكمتين في المملكة المتحدة. لم يُسمح بتسجيل مثل هذه الإجراءات إلكترونيًا، وبالتالي استخدم الباحثون نظام ترميز منظم لتسجيل تفاصيل القضية أثناء حدوثها. شملت المتغيرات التي تم تسجيلها المعلومات اللفظية (مثل نوع الإقرار المُدخل) وكذلك المعلومات غير اللفظية مثل العرق الظاهري للمدعى عليه، وما إذا كان لديه تمثيل قانوني، ومدة جلسة المحكمة. تم تقييم الموثوقية بين الملاحظين على 26 من أصل 342 قضية تم ملاحظتها، ووجد أنها ممتازة لمعظم المتغيرات، حيث بلغت معامل الارتباط 0.98 لمدة المحاكمة باستخدام ساعات توقيت.

تحويل الملاحظات إلى بيانات كمية

تتضمن الملاحظة السلوكية أيضًا تحويل الملاحظات إلى درجات رقمية أو فئات تصنيفية يمكن استخدامها لوصف الأفراد والمجموعات. يتم عادةً إنشاء القيم الرقمية باستخدام إحدى ثلاث تقنيات:

- **طريقة التكرار**: تتضمن حساب عدد مرات حدوث كل سلوك معين خلال فترة ملاحظة محددة. على سبيل المثال، ارتكب الطفل ثلاث أعمال عدوانية خلال فترة زمنية قدرها 30 دقيقة.
- **طريقة المدة:** تتضمن تسجيل الوقت الذي يقضيه الفرد في ممارسة سلوك معين خلال فترة ملاحظة محددة. على سبيل المثال، قضى الطفل 18 دقيقة في اللعب منفردًا خلال فترة 30 دقيقة.
- **طريقة الفترات:** تتضمن تقسيم فترة الملاحظة إلى سلسلة من الفترات الزمنية، ثم تسجيل ما إذا كان السلوك المعين قد حدث خلال كل فترة. على سبيل المثال، يمكن تقسيم فترة الملاحظة التي تبلغ 30 دقيقة إلى ثلاثين فترة مدة كل منها دقيقة واحدة. لوحظ الطفل وهو يلعب ضمن مجموعة خلال 12 من الفترات.

عادةً ما تكون التقنيتان الأوليتان مناسبتين لبعض السلوكيات المحددة، لكن يمكن أن تؤدي إلى قياسات مشوهة في بعض الحالات. على سبيل المثال، إذا قام طائر بالغناء بشكل مستمر خلال فترة الملاحظة التي مدتها 30 دقيقة، فسيحصل على درجة تكرار قدرها 1 فقط. بينما طائر آخر يغني 25 مرة وكل أغنية تستغرق ثانيتين فقط سيحصل على درجة مدة قدرها 50 ثانية فقط. في مثل هذه الحالات، توفر طريقة الفترات وسيلة لموازنة التكرار والمدة للحصول على قياس أكثر تمثيلاً.

أخذ عينات من الملاحظات:

عندما يواجه المراقب موقفًا معقدًا، قد يكون من المستحيل ملاحظة العديد من الأفراد وتسجيل العديد من السلوكيات المختلفة في الوقت نفسه. إحدى الحلول هي تسجيل الموقف بحيث يمكن إعادة مشاهدته عدة مرات لجمع الملاحظات. أما الحل الثاني فهو أخذ عينة من الملاحظات المحتملة بدلًا من محاولة مشاهدة وتسجيل كل شيء. الخطوة الأولى في عملية أخذ عينات من الملاحظات هي تقسيم فترة الملاحظة إلى سلسلة من الفترات الزمنية. يتضمن أخذ العينات بعد ذلك إحدى الطرق الثلاث التالية:

- ✓ **أخذ عينات زمنية:** يتضمن الملاحظة لفترة معينة، ثم التوقف خلال الفترة التالية لتسجيل كل الملاحظات. تستمر هذه السلسلة من الملاحظة – التسجيل – الملاحظة – التسجيل عبر مجموعة الفترات.
- ✓ **أخذ عينات الأحداث:** يتضمن تحديد حدث أو سلوك معين ليتم ملاحظته وتسجيله خلال الفترة الأولى، ثم تحويل الانتباه إلى حدث أو سلوك آخر خلال الفترة الثانية، وهكذا، عبر مجموعة الفترات الزمنية.
- ✓ **أخذ عينات الأفراد:** يتضمن تحديد مشارك معين ليتم ملاحظته خلال الفترة الأولى، ثم تحويل الانتباه إلى فرد آخر خلال الفترة الثانية، وهكذا.

أنواع الملاحظة والأمثلة

يستخدم علماء الأنثروبولوجيا (الذين يدرسون السلوك البشري في سياقه الاجتماعي والثقافي) وعلماء السلوك (الذين يدرسون الكائنات غير البشرية في بيئتها الطبيعية) أساليب الملاحظة بانتظام.

الملاحظة الطبيعية

عندما يقوم الباحث بملاحظة وتسجيل السلوك في بيئة طبيعية دون أي تدخل، يُطلق على ذلك اسم الملاحظة الطبيعية أو الملاحظة غير التشاركية. البيئة الطبيعية هي البيئة التي يحدث فيها السلوك عادةً ولم يتم تعديلها بأي شكل من الأشكال بهدف تعديل السلوك. في الملاحظة الطبيعية، يحاول الباحثون أن يكونوا غير ملحوظين ولا يتدخلون، حيث يسجلون الأحداث بطريقة سلبية دون تدخل.

يمكن استخدام الملاحظة الطبيعية لوصف أي نوع من السلوك، مثل سلوك الأطفال في الفصل الدراسي، أو سلوك المحتجين في الشغب، أو سلوك الزبائن في الحانة. مثال كلاسيكي على استخدام الملاحظة الطبيعية لوصف سلوك غير بشري هو بحث "جين جودال" (1971، 1986)، حيث عاشت مع مجموعة من الشمبانزي في "جومبي"، تنزانيا، لعدة سنوات في الستينيات ولاحظت سلوكيات لم تسجل من قبل في الشمبانزي، مثل استخدام الأدوات. لاحظت الشمبانزي يقوم بتقشير الأوراق من الأغصان وإدخال الأغصان في تل نمل، ثم سحب الأغصان ولعق النمل الملتصق بها. في دراسة حديثة، استخدم "وانغ وريبيتي" (2016) تسجيلات فيديو لتفاعلات طبيعية بين الأزواج لفحص سلوكيات الدعم للزوجين.

عادةً ما يتم الحكم على نتائج الدراسات التي تستخدم الملاحظة الطبيعية بأنها ذات صلاحية خارجية عالية لأن السلوك يتم فحصه في بيئات حقيقية. كما أن الملاحظة الطبيعية مفيدة لفحص السلوكيات التي، لأسباب عملية أو أخلاقية، لا يمكن تعديلها بواسطة الباحث. على سبيل المثال، لا يمكن للباحث المهتم بدراسة السلوك التأديبي (مثل الضرب) لدى الآباء أن يطلب من الآباء ضرب أطفالهم لأغراض الدراسة، لكنه يستطيع ملاحظة الآباء وهم يؤدبون أطفالهم في الأماكن العامة.

من قيود الملاحظة الطبيعية الحاجة إلى الوقت الطويل لإجراء هذا النوع من الأبحاث، إذ يتطلب، على سبيل المثال، انتظار وصول والد مع طفل إلى ملعب ومراقبة السلوك المطلوب. كما يجب على المراقب الحرص على عدم التدخل في السلوك الطبيعي للمواضيع الملاحظة.

الملاحظة بالمشاركة

في الملاحظة بالمشاركة، لا يقوم الباحث بالمراقبة من بعيد كما هو الحال في الملاحظة الطبيعية، بل يتفاعل مع المشاركين ويصبح جزءًا منهم من أجل ملاحظة وتسجيل السلوك. هذا النوع من الملاحظة ضروري في الحالات التي لا يمكن فيها الملاحظة غير الملحوظة. على سبيل المثال، لا يستطيع الباحث أن يحضر اجتماعًا لجماعة دينية أو عصابة ويتوقع ألا يتم ملاحظته أو أن لا يؤثر حضوره على السلوك أو أن تكون السلوكيات الملاحظة طبيعية.

مثال معروف على الملاحظة بالمشاركة هو بحث "روزينهان" (1973) الذي درس تجارب المرضى وتفاعلات المرضى مع الموظفين في مستشفيات الأمراض النفسية. طلب "روزينهان" من ثمانية أفراد إعطاء معلومات زائفة حول أسمائهم ومهنهم وادعاء سماع أصوات لكي يتم قبولهم في مستشفيات الأمراض النفسية. تم قبول جميع الثمانية، حيث قاموا بمراقبة الظروف داخل المستشفى ومعاملة الموظفين والسلوكيات التي تظهر بين المرضى والموظفين. لم يدرك أي من الموظفين أن هؤلاء الأشخاص ليسوا مرضى حقيقيين. في دراسة أقل خطورة، انضم باحث إلى مجموعة علاج بديل تستخدم الشعر والغناء كوسيلة للعلاج (هولمز، 2017)، حيث اختبر المشاركون الشفاء من خلال المواضيع التي تعالج فقدان الأحبة أو مشاعر الحب والرعاية.

تسمح الملاحظة بالمشاركة للباحثين بملاحظة سلوكيات قد لا تكون متاحة للمراقبة من الخارج. بالإضافة إلى ذلك، يمنح التفاعل مع المشاركين الباحث نظرة فريدة على السلوك لا يمكن الحصول عليها بالمراقبة عن بعد.

ويتم الحكم على نتائج دراسات الملاحظة بالمشاركة بأنها ذات صلاحية خارجية عالية لأن السلوكيات يتم فحصها في بيئات حقيقية.

لكن، هناك عدة قيود لهذا النوع من الملاحظة. فهي تتطلب وقتًا طويلاً، كما هو الحال في دراسة "روزينهان"، التي استغرق فيها المشاركون بين 7 إلى 52 يومًا في المستشفيات. كما أن الملاحظة بالمشاركة قد تكون خطيرة على الباحث، وقد تؤدي إلى تأثير غير مقصود على سلوك المشاركين. وأخيرًا، قد يفقد الباحث موضوعيته بسبب ارتباطه بالمشاركين وانخراطه في حياتهم.

تعريف

في الملاحظة بالمشاركة، يشارك الباحث في نفس الأنشطة التي يقوم بها الأشخاص الذين يتم ملاحظتهم من أجل ملاحظة وتسجيل سلوكهم.

الملاحظة المنظمة

نوع آخر من الملاحظة هو الملاحظة المنظمة أو الملاحظة المفتعلة. على عكس مجرد ملاحظة السلوك كما يحدث، يقوم الملاحظ بإعداد موقف من المحتمل أن ينتج السلوكيات المراد ملاحظتها، مما يلغي الحاجة إلى انتظار حدوثها طبيعيًا. غالبًا ما يكون هدف الملاحظة المنظمة هو استدعاء سلوك طبيعي لكنه نادر الحدوث، وخلق بيئة تزيد من احتمالية حدوث السلوك في وقت أقصر.

يمكن إجراء مثل هذه الدراسات في المختبرات أو في بيئات أخرى خاضعة للرقابة. على سبيل المثال، إذا أراد الباحث مراقبة التفاعلات بين الوالدين والطفل، يمكن دعوة الوالدين والأطفال إلى مختبر وإعطاؤهم مهمة للقيام بها أثناء الملاحظة أو التصوير بالفيديو. هذه الطريقة أسرع بكثير من انتظار وصول الوالدين والأطفال إلى ملعب والتفاعل مع بعضهم البعض، وهو ما يحدث في الملاحظة الطبيعية. ولإجراء ملاحظات على تطور مشكلات السلوك لدى الأطفال، قام "فليمينغ"، "ماكماهون"، و"كينغ" (2016) بإعطاء تعليمات لأزواج من الوالدين والأطفال للانخراط في ألعاب موجهة من الوالدين لملاحظة استجابة الطفل لسلطة البالغين.

يستخدم علماء النفس التنمويون الملاحظة المنظمة بشكل متكرر. مثال بارز هو العالم النفسي السويسري "جان بياجيه" (1896–1980). ففي العديد من دراسات بياجيه، تم إعطاء الطفل مسألة لحلها (مثل تحديد الأسطوانة التي تحتوي على أكبر كمية من الماء)، وكان الباحث يراقب ويسجل كيفية حل الطفل للمسألة. قدمت هذه

الملاحظات قدرًا كبيرًا من المعلومات حول القدرات المعرفية للأطفال وأصبحت أساسًا لنظرية بياجيه حول مراحل التطور المعرفي.

مثال آخر معروف على الملاحظة المنظمة من علم النفس التنموي هو "وضعية إينسورث الغريبة" (إينسورث وآخرون، 2015)، والتي تتضمن سلسلة من الحلقات التي تتفاعل فيها الأم ورضيعها، تنفصلان وتعودان للقاء. يعتمد تصنيف العلاقة بين الأم والرضيع (أسلوب التعلق) على ردود فعل الرضيع تجاه هذه الحلقات. يُستخدم هذا النظام لتصنيف التعلق في العديد من الدراسات بتصاميم بحثية مختلفة. على سبيل المثال، عند استخدامه كجزء من دراسة طولية، يتيح اختبار "وضعية إينسورث الغريبة" للباحثين فحص استمرارية خصائص العلاقات الفردية (مثل "واترز" وآخرون، 2000). كما قام الباحثون بمقارنات عبر نقاط زمنية وعبر مجموعات. على سبيل المثال، قارن "فان إيزندورن" و"كرونينبيرغ" (1988) حوالي 2000 تصنيف لوضعية إينسورث الغريبة من ثماني دول، وأشارت تحليلاتهم إلى وجود بعض التنوع الثقافي في أنماط التعلق. والمثير للاهتمام أن تطوير "وضعية إينسورث الغريبة" قد استند إلى البحث الوصفي القائم على الملاحظة الطبيعية للأمهات والرضع في أوغندا في عام 1954، ودراسة طولية لاحقة في الستينيات في مدينة "بالتيمور" بالولايات المتحدة والتي راقبت أيضًا علاقات الأمهات والرضع. يوضح هذا كيف تستخدم برامج البحث الكبيرة غالبًا عدة أشكال من أساليب القياس أو التصميم البحثي، وأحيانًا تستخدم أكثر من نوع واحد من القياس أو استراتيجية البحث لتطوير البحث.

قد تتم الملاحظة المنظمة أيضًا في بيئة طبيعية ولكن معدة لهذا الغرض: بيئة ميدانية (يراها المشارك كبيئة طبيعية) يرتبها الباحث لأغراض الملاحظة وتسجيل السلوك. عند استخدامها بهذه الطريقة، تعتبر الملاحظة المنظمة حلًا وسطًا بين الملاحظة الطبيعية التي تحدثنا عنها سابقًا والتجارب الميدانية التلاعبية (التي سيتم مناقشتها في الفصل السابع). على سبيل المثال، اكتشف عالم السلوك الحائز على جائزة نوبل "كونراد لورينز" ظاهرة التتبع عن طريق ملاحظة سلوك إوزة الغراء الرمادية. التتبع هو تشكيل تفضيل قوي ومستقر أو تعلق بشيء عند مواجهة هذا الشيء خلال فترة حساسة في حياة الحيوان؛ عادةً، تتبع إوزة الغراء الوالد مباشرة بعد الفقس. اكتشف "لورينز" التتبع من خلال الملاحظة الطبيعية عندما تبعته الإوزات كما لو كان والدها! ثم استخدم هو وآخرون الملاحظة المنظمة لرؤية ما إذا كانت الإوزات الصغيرة ستتبع نماذج أخرى أيضًا (والتي فعلوها بالفعل؛ إذ تتبع إوزة الغراء أي جسم متحرك في البيئة).

ميزة الملاحظة المنظمة مقارنةً بالملاحظة الطبيعية أو المشاركة هي أن الباحثين لا يحتاجون إلى انتظار حدوث السلوكيات بشكل طبيعي. بدلًا من ذلك، يتم إعداد البيئة بحيث تزيد احتمالية حدوث السلوكيات المطلوبة. ومع ذلك، فإن من عيوب الملاحظة المنظمة أنه نظرًا لأن البيئة أقل طبيعية، فإن السلوك قد يكون كذلك أيضًا.

ملاحظة بالمشاركة: حالة يشارك فيها الملاحظ (تتطلب الاندماج) في حياة الأشخاص محل الدراسة (مثلا: العيش في وسط تنظيم أو مجموعة بشرية بغية دراستها عن قرب).

ملاحظة من دون مشاركة: حالة لا يشارك فيها الملاحظ في حياة الأشخاص محل الدراسة، بل يكتفي بالملاحظة من الخارج فقط، مثلا: ملاحظة فريق رياضي وتسجيل أهم النتائج والاستنتاجات.

الملاحظة المستترة: حالة لا يدري فيها الأشخاص الملاحظين أنهم محل ملاحظة.

الملاحظة المكشوفة: حالة يعرف فيها الأشخاص الملاحظين أنهم محل ملاحظة.